مجلة العلوم الإنسانية
ISSN 1112-9255
العدد السابع / الجزء(1) - جوان 2017

OEB Univ. Publish. Co.

الشاهد القرآني جمالياته ووظائفه في كتاب الحيوان للجاحظ

Quranic Testifier aesthetics and functions within EL djahiz' book the animal

أ. إبراهيم كربوش،جامعة أم البواقي، الجزائر.

تاريخ التسليم:(2016/03/09)،تاريخ القبول:(2017/05/10)

ملخص :

يتعرض هذا المقال لجماليّة الشّاهد القرآنّي في كتاب الحيوان للجاحظ، فيطرح قضيّة تتلخص في الوقوف على جماليّات الشّاهد القرآني من خلال ذوقه وفهمه وشروط تفسيره وتوظيفه، في أهّمكتبه والذي يعد فعلا موسوعة علميّة ضمت كنوزا شتّى من ثقافة عصر الكاتب. ولّن غاية الكاتب من تأليفه دينية في أصلها، إلا أنّه عالج فيه قضايا أخرى لغويّة وأدبيّة وعلميّة وكلاميّة.

وقد حاولنا في هذا كشف طريقة الجاحظ في تذّوق الشّاهد القرآني، وكيفية توظيفه والمجالات التي اعتمده فيها، ووجدنا الكاتب لم يستطع الإفلات من الّروح الأدبيّة التي تسكنه من جهة ومن جهة أخرى تسلط النزعة الاعتزاليّة على منهجه وغايته.

الكلمات المفتاحية: الشاهد القرآني، جمالياته كتاب الحيوان للجاحظ

Abstract :

The present article exposes the Quranic Testifier aesthetics and functions within EL djahiz' book intatled the animal.

It thus presents an affair which is, all in all, related to the careful consideration over the aestheticism of the Quranic testifier through his taste, his understanding and his conditions of interpreting and employing this testifier in one of his most important books, and which is regarded as a scientific encyclopedia that comprised several treasures from the culture's author. Though the purpose from publishing this book was originally religious in nature, he dealt therein with other various issues; linguistic, literary, scientific and argumentative.

Hence, we have attempted here to reveal El-Djahidh's method in tasting the Quranic testifier and the way he employed it as well as the various domains in which he happened to utilize it. In this respect, we have come to the conclusion that the author could not escape the literary spirit dwelling him from the one hand, and the impact of the rational trend on his methodology and aim from the other.

Keywords: Quranic Testifier aesthetics, EL djahiz' book the animal

مقدمة:

الجاحظ علم من أعلام الثّقافة العربيّة الإسلاميّة، ورمز من رموزها الأفذاذ، شخصيّة قلّما يجود الزّمان بمثلها.عاشت في زمن بلغت فيه الحضارة الإسلاميّة مرتبة كبيرة من الرقّي والازدهار، بسطت ظلالها الوارفة ونورها السّاطع على أصقاع المعمورة، حيث كانت تحمل مشعل الحضارة لا ينافسها فيه منافس.

وكان من الشّخصيات التي تمثّلت هذه الثقافة التي وسمت بالتنّوع وتعدد المشارب، مما أكسبها خصبا وثراء، وظهر ذلك جليّا في مؤلفاته ومواقفه في مجالس العلم وبلاط الخلفاء والأمراء والوزراء. عالج قلمه قضايا فكريّة وكلاميّة وعلميّة وبلاغيّة ونقديّة وغيرها، شغلت عصره، وأبدى رأيه فيها معتمدا على زاد معرفي ثّر وذخيرة تسعفه وتعضد موقفه، كيف لا وهو رأس من رؤوس المعتزلة وقطب من أقطابها، وإمام من أئمة الأدب الأفذاذ، وقد ظهرت فرقة تنتسب إليه تعرف بالجاحظيّة. والمعتزلة كانت من الفرق الإسلاميّة القويّة التي استطاعت أن تفرض نفسها على النشاط الفكريّ والفلسفّي والأدبّي والدينّي، وجمعت بين الثّقافة العربيّة الإسلاميّة، وبين الثقافة اليونانيّة بما تحتويه من فلسفة ومنطق، فكانت لهم مقدرة عجيبة في التحليل العقلّي والتمحيص وقّوة في الجدل وسوق الأدلّة والبراهين، كما استحوذوا على مقاليد الفصاحة والبلاغة،وأغلب الآراء والمصطلحات البلاغيّة ظهرت عند علماء اللغة والنّحو والمتكلمين في تعاملهم مع النص القرآنّي، أي حول فهم نصه على ظاهره أو باطنه، ومتى يكون اللّفظ عامّا، ومتى يكون خاصّا، ومتى يكون عامّا يدخله الخصوص، ومتى يفهم على حقيقته، ومتى يفهم على مجازه، ومتى يؤّول، وما ضوابط التأويل، وكيف يتفق نصه مع منطق حياتنا وأسلوب تفكيرنا وفيه من الغيبيات ما ليس في ظاهر حياتنا. وأنّ المعتزلة أقدر المتكلمين على تأصيل المحاّجة. (فشل، 1979). وقد واجهوا الكثير من الفرق الإسلاميّة وغيرها من الفرق التي تطعن في الإسلام والعرب وتبّوأت مكانة عليّة عند خلفاء بني العباس الذين قّربوهم من مجالسهم واستوزروهم واتّخذوا منهم الكتّاب والحّجاب وأكثر من ذلك، فمن خلفاء بني العباس- على رأسهم المأمون - من قال بآرائهم وتبنّاها وعاقب من خالفها وألحقوا الأذى بالكثير من العلماء والفقهاء وعلى رأسهم الإمام أحمد بن حنبل. وانطلاقا من طبيعة هذا النوع من الفكر، نجد الجاحظ لا يدلي برأي أو فكرة إلا شفعها بشاهد أو مثل يقّوي حّجته، أو يستعين به على دحض فكرة، يبيّن تهافتها وابتذالها وقد يصل به الحد إلى السخرية منها.

وكان المعين الذي يعتمد عليه والمنبع الذي يصدر عنه القرآن الكريم والحديث النبوّي الشريف وما أثر عن العرب من نظم ونثر في مختلف القضايا التي تواجهه في عصره الذي استقاه من أعلام عصره كالأصمعّي وأبي عبيدة والنظّام وغيرهم، ومن المجالس التي كان يحضرها، والمعروف أنه كان من رّواد المربد، كما نال حظّا وافرا من الثّقافة الوافدة التي دّعم بها رصيده الفكريّ والعلمّي، وأخذ عصارتها من فلسفة ومنطق وغيرهما.

والباحث في تراث الجاحظ لا شكّ أنه يجد تراثا ضخما يصعب حصره لوفرته وتنّوعه. وحاولنا أن نفتح نافذة على التراث الجاحظّي الذي يتصل بالقرآن الكريم، وذلك في فهمه وتذوقه وتوظيفه، في هذا المقال الموسوم ب: «الشّاهد القرآنّي جماليّاته و وظائفه في كتاب الحيوان للجاحظ ». وهذا الموضوع لم يلق الاهتمام اللّازم من طرف الدّارسين الذين ركّزوا على دراسة هؤلاء الجاحظ من الناحيّة البلاغيّة، والنقديّةوالكلاميّةوالاجتماعيّة،وغيرها، وقلّما وقفوا على جماليّات الشّاهد القرآنّي عند الجاحظ، وفي كتاب الحيوانخاصّة، لأن هذه الموسوعة العلميّة والأدبيّة ضمّت عددا كبيرا من آي القرآن الكريم وظّفها الجاحظ لأغراض شتّىّ،تارخا وتفسيرا وتأويلا وشواهد في قضايا دينيّة ولغويّة وبلاغيّة وغيرها. وإن كان الشّاهد الشعرّي قد استحوذ على حصة الأسد، ولهذا المصطلح(الشّاهد) عدة مرادفات في كتاب الحيوان، منها الحجج الظّاهرة، الأدلّة المترادفة، البرهانات والعلامات.(الجاحظ، الحيوان، 1969 :3/226،340). وشاعت الكثير من النعوت حول الشّاهد عند الجاحظ وعلى رأسها الصّدق حيث يقول: وفي كل ذلك روينا الشّاهد الصّادق والمثل السائر.(الجاحظ، الحيوان، 1969: 5/156). والعدل. (الجاحظ، رسائل الجاحظ، 1979: 3/132-152-425) والظّهور.(الجاحظ، الحيوان، 1969 :3/308). والبديع.(الجاحظ، الحيوان، 1969: 3/70) والمعروف.(الجاحظ، الحيوان، 1969، 6/12، 7/5). والشهرة.(الجاحظ، الحيوان، 1969: 1/223).

يقول الجاحظ في هذا الصّدد: ولم نذكر، بحمد الله تعالى، شيئا من هذه الغرائب طريفة من الطّرائف إلاّ ومعها شاهد من كتاب منزّل، أو حديث مأثور، أو خبر مستفيض، أو شعر معروف، أو مثل مضروب، أو يكون ذلك مما يشهد عليه الطّبيب، ومن قد أكثر قراءة الكتب، أو بعض من قد مارس الأسفار، وركب البحار، وسكن الصّحارى واستذرى بالهضاب، ودخل في الغياض، ومشى في بطون الأودية.(الجاحظ، الحيوان، 1969: 6/12). وأنت ترى شواهده على اختلاف أنواعها منها ما يسمع، ومنها ما يعاين، ومنها ما يشاهد، ومنها ما يرى وهذا ظاهر بيّن في حديثه السابق، وهذا يكّرس اهتمام الجاحظ بالمتلّقي الذي يزرع اليقين فيه ويبعد الشبهات عنه. ولا نستغرب ذلك من رجل ينتمي إلى فرقة كلاميّة تسير على هدى من العقل وتأتمر بأوامره، فأبو عثمان يصّرح بأنّ العقل هو الحّجة.(الجاحظ، الحيوان، 1969: 1/207)،ويحرص كل الحرص على التبّحر في اللّغة العربيّة والوقوف على أسرارها وأساليبها وطرق التّعبير وكيفيّة توظيفها في المواقف والحالات المختلفة، وإن شئت طريقة العرب الفصحا والنّسج على منوالهم، ولن تجد طريقة أمثل من طريقتهم، وهذا الحرص من الجاحظ له ما يسّوغه، وذلك لما يترتّب عليه من نتائج تهلك الفرد كما تهلك الجماعة : فللعرب أمثال واشتقاقات وأبنية، وموضع كلام يدلّ عندهم على معانيهم وإرادتهم، ولتلك الألفاظ مواضع أخر، ولها حينئذ دلالات أخر، فمن لم يعرفها جهل تأويل الكتاب والسنّة، والشّاهد والمثل، فإذا نظر إلى الكلام وفي ضروب من العلم،

وليس هو من أهل هذا الشّأن، هلك وأهلك.(الجاحظ، الحيوان، 1969: 1/154،153). فهو أساس علم الأدب كفاك من العلم أن تروي الشّاهد والمثل.(الجاحظ البيان والتبيين: 1/86- 271). والجاحظ من الذين يدركون بلاغة القرآن الكريم وفصاحته وأنّه في مرتبة كبيرة لا يدانيه كلام آخر، ولو اجتمعت الجنّ والإنس، وأنّه حجّة قاهرة دامغة وبرهان قويّ، يخالف كلام البشر وفي هذا يقول الجاحظ: ...وكيف خالف القرآن جميع الكلام الموزون والمنثور، وهو منثور غير مقفى على مخارج الأشعار والأسجاع، وكيف صار نظمه من أعظم البرهان، وتأليفه من أكبر الحجج.(الجاحظ، البيان والتبيين: 1/383). ولهذا عدّه العلماء والفقهاء وأهل الأدب واللغة الحجّة الأولى التي لا ينازعها منازع وهذا ما أكّده هؤلاء، ونستحضر في هذا المقام قول الفرّاء:إنّ لغة القرآن الكريم أفصح أساليب العربيّة على الإطلاق: والكتاب أعرب وأقوى في الحجّة من الشّعر. (الفراء، 1983) ويؤكد هذا الكلام الجاحظ نفسه: في كتابنا المنزّل الذي يدلّنا على أنّه صدق، نظمه البديع الذي لا يقدر على مثله العباد.(الجاحظ، الحيوان، 1969: 4/90). وبيّن أبو عثمان الفروق التي نلمسها بين القرآن وكلام العرب شعرا أم نثرا: وفرق مابين نظم القرآن، ونظم سائر الكلام وتأليفه، فليس يعرف فروق النّظم واختلاف البحث والنثر، إلّا من عرف القصيد من الرّجز، والمخّص من الأسجاع، والمزاوج والمنثور والخطب من الرّسائل. (الجاحظ، العثمانية، 1991) مع أنّه نزل بلغتهم التي مهروا فيها وافتخروا بها، وهذا ما جاء في محكم التنزيل: ﭐ ﭑ ﭒ ﭓ ﭔ ﭕ ﭖ ﭗ ﭘ ﭙ ﭚ ﭛ ﭜ ﭝ ﭞ ﭟ ﭠ ﭡ ﭢ ﭣ ﭤ ﭥ ﭦ ﭧ ﭨ ﭩ ﭪ ﭫ ﭬ ﭭ ﭮ ﭯ ﭰ ﭱ ﭲ ﭳ ﭴ ﭵ ﭶ ﭷ ﭸ ﭹ ﭺ ﭻ ﭼ ﭽ ﭾ ﭿ ﮀ ﮁ ﮂ ﮃ ﮄ ﮅ ﮆ ﮇ ﮈ ﮉ ﮊ ﮋ ﮌ ﮍ ﮎ ﮏ ﮐ ﮑ ﮒ ﮓ ﮔ ﮕ ﮖ ﮗ ﮘ ﮙ ﮚ ﮛ ﮜ ﮝ ﮞ ﮟ ﮠ ﮡ ﮢ ﮣ ﮤ ﮥ ﮦ ﮧ ﮨ ﮩ ﮪ ﮫ ﮬ ﮭ ﮮ ﮯ ﮰ ﮱ ﯓ ﯔ ﯕ ﯖ ﯗ ﯘ ﯙ ﯚ ﯛ ﯜ ﯝ ﯞ ﯟ ﯠ ﯡ ﯢ ﯣ ﯤ ﯥ ﯦ ﯧ ﯨ ﯩ [يوسف: 2]. ﭐ ﭑ ﭒ ﭓ ﭔ ﭕ ﭖ ﭗ ﭘ ﭙ ﭚ ﭛ ﭜ ﭝ ﭞ ﭟ ﭠ ﭡ ﭢ ﭣ ﭤ ﭥ ﭦ ﭧ ﭨ ﭩ ﭪ ﭫ ﭬ ﭭ ﭮ ﭯ ﭰ ﭱ ﭲ ﭳ ﭴ ﭵ ﭶ ﭷ ﭸ ﭹ ﭺ ﭻ ﭼ ﭽ ﭾ ﭿ ﮀ ﮁ ﮂ ﮃ ﮄ ﮅ ﮆ ﮇ ﮈ ﮉ ﮊ ﮋ ﮌ ﮍ ﮎ ﮏ ﮐ ﮑ ﮒ ﮓ ﮔ ﮕ ﮖ ﮗ ﮘ ﮙ ﮚ ﮛ ﮜ ﮝ ﮞ ﮟ ﮠ ﮡ ﮢ ﮣ ﮤ ﮥ ﮦ ﮧ ﮨ ﮩ ﮪ ﮫ ﮬ ﮭ ﮮ ﮯ ﮰ ﮱ ﯓ ﯔ ﯕ ﯖ ﯗ ﯘ ﯙ ﯚ ﯛ ﯜ ﯝ ﯞ ﯟ ﯠ ﯡ ﯢ ﯣ ﯤ ﯥ ﯦ ﯧ ﯨ ﯩ [الشعراء: 195]وقد أدركت العرب أنّه لا طاقة لهم بمثل هذا الكلام فهو يخرج عن قدرتهم.(الجاحظ، رسائل الجاحظ، 1979: 3/251)وإن كان تكبّرهم منعهم من التسليم، جاء في سيرة ابن هشام: ثّم إنّ الوليد بن المغيرة اجتمع إليه نفر من قريش، وكان ذا سنّ فيهم، وقد حضر الموسم، فقال لهم:يا معشر قريش، إنّه قد حضر الموسم، وأنّ وفود العرب ستقدم عليكم فيه، وقد سمعوا بأمر صاحبكم هذا، فأجمعوا فيه رأيا واحدا، ولا تختلفوا فيكذّب بعضكم بعضا، فقالوا: فأنت يا أبا عبد شمس، فقل فأقم لنا رأيا نقول به، قال: بل أنتم فقولوا، أسمع. قالوا : نقول كاهن، قال: لا والله ما هو بكاهن، لقد رأينا الكّهان، فما هو بزمزة الكاهن ولا سجعه، قالوا: فنقول مجنون، قال: ما هو بمجنون، لقد رأينا الجنون وعرفناه، فما هو بخنقه ولا تخالجه ولا وسوسته، فقالوا: فنقول: شاعر، قال: ما هو بشاعر، لقد عرفنا الشّعر كلّه رجزه وهزجه وقريضه ومقبوضه ومبسوطه، فما هو بالشّعر، قالوا: فنقول: ساحر، فقال: ما هو بساحر، لقد رأينا السّحار وسحرهم، فما هو بنفثهم ولا عقدهم، قالوا: فما نقول يا أبا عبد شمس؟ قال: والله إنّ لقوله لحلاوة، وإنّ أصله لعذق، وإنّ فرعه لجناة وما أنتم بقائلين من هذا شيئا إلاّ عرف أنّه باطل، وإنّ أقرب القول فيه لأن تقولوا: ساحر، جاء بقول هو سحر يفّرق به بين المرء وأبيه، وبين المرء وأخيه، وبين المرء وزوجته، وبين المرء وعشيرته. (هشام، صفحة 289،288) وكان أبو عثمان من الذين عالجوا قضيّة النّظم القرآنيوألّفوا في ذلك (نظم القرآن) والكتاب مازال مفقودا كما تطّرق

من خلال هذا العمل إلى البيان العربّي وإبراز خصائصه التي تفرّد بها وقد خاض في هذه القضيّة كثير من الفرق الإسلاميّة على رأسها المعتزلة طبعا بعد أن برزت قضايا لم تكن موجودة في الساحة الفكريّة والعقديّة للمسلمين، خاض رحاها الزّنادقة والملاحدة وأصحاب الذّحل المختلفة اعتمدوا فيما اعتمدوا الفلسفة والمنطق هذا من جهة ومن جهة أخرى الفرق الإسلامية يمثلهم المعتزلة وأهل السنّة، والشيعة، والخوارج ومن الأفكار التي تسرّبت: خلق القرآن، وهل يجوز تفسير الآيات المتشابهات، والصّفات، والقول بالصّرفة. والمعتزلة كغيرهم اهتموا بإعجاز القرآن الكريم وكانوا من الأوائل الذين ألّفوا في تفسيره وبيان معانيه، وفي نظمه، وإعجازه، ومحكمه، ومشتبهه، وناسخه ومنسوخه. (غرة، 2009) فلواصل بن عطاء كتاب في معاني القرآن. (سلام، دت) ولأبي الهذيل العلاّف كتاب في متشابه القرآن.(النديم، 1971: 68). ولأبي علّي الجبائي متشابه القرآن.(النديم، 1971: 39). وللجاحظ نظم القرآن.(النديم، 1971: 41). والمسائل في القرآن.(النديم، 1971: 41). ولبشر بن المعتمر متشابه القرآن.(النديم، 1971: 41). وللنظّام القرآن ما هو؟.(النديم، 1971: 206). ويعد الجاحظ من الأوائل الذين ألّفوا في إعجاز القرآن إن لم نقل الأوّل، ومن الذين احتجوا له. وكتاب الجاحظ الذي ألمعنا إليه من قبل، مازال مفقودا مثله مثل الكثير من كتب المعتزلة.

وإذا ما تناولنا الشّاهد القرآنّي في كتاب الحيوان، لا نريد من ذلك أن نجعل من الجاحظ مفسّرا، وإنما نحاول أن نتلمس جماليات الشّواهد القرآنيّة انطلاقا من فهم الجاحظ وذوقه كأديب، وطريقته في توظيفه في السياقات المختلفة، ووفق رؤية المدرسة الاعتزاليّة التي ينتمي إليها، والإشارة كذلك إلى موقف الجاحظ من مفسري عصره وقد نبّه الجاحظ على قضيّة مهّمة وخطيرة تتصل بالمفسّرين عامة، وذلك في تفسير الآيات إذا كان اللّفظ عاما، فلا يسارع إلى تفسيرها، ويخطئ كل من خالفه، فعلى المفسّر أن يعتمد على ما قاله النّبّي ﷺ مع تلاوة الآية، أو يكون جبريل أطلع النّبّي على ذلك، ثم يجتهد في استخراج المعنى اعتمادا على بنية النص نفسه : لأن الله تبارك وتعالى لا يضمر ولا ينوي، ولا يخصّ ولا يعّم بالقصد، وإنّما الدّلالة في بنية الكلام نفسه.(الجاحظ، الحيوان، 1969: 180/1). وينبه الجاحظ على قضيّة يراها ضروريّة وعلى درجة كبيرة من الأهميّة، لمن يقبل على فهم القرآن الكريم وتفسيره، وهو يذكرها على أساس أنّها شرط أكيد، وهي التبحر في اللغة وقد أشرنا إلى ذلك سابقا، ثم يضيف العلم بالكلام، وأنّ العلم باللّغة لا يجدي شيئا في الدين، حتّى تكون عالما بالكلام ولو كان أعلم النّاس باللّغة، لم ينفعك في باب الّدين حتّى يكون عالما بالكلام.(الجاحظ، الحيوان، 1969: 15/2). والمتأّمل لمثل هذا الكلام يرى أنّه جاء في سياق الرّد على أولئك المشكّكين الطّاعنين في أسلوب القرآن الكريم والذين ارتفع صوتهم في عصر الجاحظ، ودأبوا على زرع البلبلة في نفوس المسلمين، لتهتز بذلك مكانة القرآن الذي يعد دستور المؤمنين، فاحتيج إلى من يتصدى لهم فيدحض دعواهم ويخرس ألسنتهم بأدلّة قاهرة

مبكتة ويكون العقل فيها هو الرائد. ومن أهّم المسائل التي عالجها الجاحظ وفق رؤية كلامية وعالج من خلالها قضيّة بلاغيّة في الأساس تتصل بالتّشبيه، وهي تتناول مناسبة المشبّه به للمشبّه وجاء ذلك في الآية الكريمة: گ گ گ گ ں ڻ ڻ ڻ ۀ ۀ ہ ہ ہ ھ ھ ے ے ۓ ۓ ﮲ ﮳ ﮴ ﮵ ﮶ ﮷ ﮸ ﮹ ﮺ ﮻ ﮼ ﮽ ﮾ ﮿ ﯀ ﯁ ﯂ ﯃ ﯄ ﯅ ﯆ ﯇ ﯈ ﯉ ﯊ ﯋ ﯌ ﯍ ﯎ ﯏ ﯐ ﯑ [الأعراف: 175-176].

فزعموا أنّ هذا لا يجوز أن يضرب لهذا المذكور في صدر الكلام، لأنّه قال: گ گ گ گ ں ڻ ڻ ڻ ۀ ۀ [الأعراف: 175]فما يشبّه حال من أعطي شيئا فلم يقبله- ولم يذكر غير ذلك- بالكلب الذي إن حملت عليه، نبح وولّى ذاهبا وإن تركته شدّ عليك ونبح. مع أنّ قوله: يلهث، ولم يقع في موضعه، وإنّما يلهث الكلب من عطش شديد وحرّ شديد، ومن تعب، وأما النباح والصياح فمن شيء آخر.(الجاحظ، الحيوان، 1969: 2/16،15). ويردّ الجاحظ على هذا الطّعن بكلّ ثقة ورزانة وتمكن:« قلنا له: ﯑ ﯒ ﯓ ﯔ ﯕ ﯖ ﯗ [الأعراف: 176] فقد يستقيم أن يكون الّراد لا يسّمى مكذّبا، ولا لهم كذّبوا إلّا وقد كان ذلك منهم مرارا فإن لم يكن ذلك فليس ببعيد أن يشبّه الذي أوتي الآيات والأعاجيب والبرهانات والكرامات في بدء حرصه عليها وطلبه لها، بالكلب في حرصه وطلبه، فإنّ الكلب يعطي الجّد والجهد من نفسه في كلّ حالة من الحالات.وشبّه رفضه وقذفه لها من يديه، وردّه لها بعد الحرص عليها وفرط الرغبة فيها، بالكلب إذا رجع ينبح بعد إطّرادك له. وواجب أن يكون رفض قبول الأشياء الخطيرة النفيسة في وزن طلبهم والحرص عليها. والكلبأتعب نفسه في شدّة الذّباح مقبلا إليك ومدبرا عنك، لهث واعتراه ما يعتريه عند التّعب والعطش.وعلى أنّنا ما نرمي بأبصارنا إلى كلابنا وهي رابضة وادعة، إلّا وهي تلهث، ومن غير أن تكون هناك إلّا حرارة أجوافها، والّذي طبعت عليه من شأنها، إلّا أنّ لهث الكلب يختلف بالشّدة واللّين.(الجاحظ، الحيوان، 1969: 2/16). وهنا نلاحظ أنّ الجاحظ بين ما هو كلامي وبلاغي للردّ على هؤلاء، واعتماده في ذلك الطريقة المنطقية التي عمادها الحجج العلمية المتعلقة بالحيوان (الكلب) ، والذوق الأدبّي الرفيع في كشف المعنى المراد. ومن الشّواهد التي وقف عندها الجاحظ : أما قوله عزّ وجلّ: ں ڻ ڻ ڻ [النحل: 69] فالعسل ليس بشراب، وإنما هو شيء يحوّل بالماء شرابا، أو بالماء نبيذا. فسماه كما ترى شرابا، إذ كان يجيء منه الشراب. ومتى خرج العسل من جهة بطونها وأجوافها، فقد خرج في اللّغة من بطونها وأجوافها.(الجاحظ، الحيوان، 1969: 5/425). ويدخل هذا في باب المجاز المرسل وعلاقته اعتبار ما يكون عند المتأخّرين من البلاغيين، والملاحظ أن الجاحظ كان قريبا جدّا من تحديد مفهوم المجاز المرسل تحديدا اصطلاحيا، فالرجل أدرك أن العسل ليس بشراب ويتحول إلى شراب إذا أضفنا إليه الماء ثم نجد ملاحظة لطيفة حين قال: يجيء منه الشراب، وهذا يعني أنّه سيكون شرابا في المستقبل إذا خالطه الماء، وهذه لعمري ملاحظات مهّمة، اعتمدها من جاء بعده في تحديد الكثير من المصطلحات البلاغيّة. ويتعّرض الجاحظ إلى صنف من النّاس يدعون العلم ويفّسرون

القرآن الكريم تفسيرا ينّم على جهل واضح، فهم بعيدون كل البعد عن لغة العرب وعن أساليبهم في التعبير، ويضرب الجاحظ مثلا بابن حائط وناس من جّهال الصوفيّة، أنّ في النّحل أنبياء لقوله تعالى: ڈ ڈ ڈ ژ [النحل: 68]. وزعموا أن الحواريين كانوا أنبياء لقوله عزّ وجلّ: ہ ھ ھ ھ [المائدة: 111]. وهذا واضح من أن القوم قد عرفوا معنى واحدا لكلمة الوحي وجهلوا معانيها الأخرى. (منظور، 1999) وهي تعني في هذا السياق الإلهام. ولهذا نجد الجاحظ يردّ عليهم بنوع من التّهكم والسّخرية، قلنا:وما خالف إلى أن يكون في النّحل أنبياء. بل يجب أن تكون النحل كلّها أنبياء لقوله عزّ وجلّ: ڈ ڈ ڈ ژ [النحل: 68]. ولم يخصّ الأمّهات والملوك واليعاسيب، بل أطلق القول إطلاقا. وبعد فإن كنتم مسلمين فليس هذا قول أحد من المسلمين.(الجاحظ، الحيوان، 1969: 424/5، 425).3 وجاء في قوله تعالى: ب بپ [المائدة: 42]. وقال الجاحظ إنّ هذا في باب المجاز والتّشبيه بالأكل. فالأكل هنا استعمل استعمالا مجازيّا لا على سبيل الحقيقة، ويوضّح أبو عثمان ذلك: وقد يقال لهم ذلك وإن شربوا بتلك الأموال الأنبذة، ولبسوا الحلل، وركبوا الّدواب، ولم ينفقوا منها درهما واحدا في سبيل الأكل.(الجاحظ، الحيوان، 1969: 25/5).وهذا إشارة منه إلى أنّه من المجاز وهو المقابل الحقيقة. وجاء في الكتاب العزيز: ئۆ ئۆ ئۈ ئې ئې ئى ئى ی ی ی ی [لقمان: 27].

ويعلق الجاحظ على الآية الكريمة: والكلمات في هذا الموضع، ليس يريد بها القول والكلام المؤلّف من الحروف، وإنّما يريد النّعم والأعاجيب والصّفات وما أشبه ذلك، فإن كلاّ من هذه الفنون لو وقف عليه رجل رقيق اللسان صافي الذّهن، صحيح الفكر تّام الأداة، لما برح أن تحسره المعاني وتغمره الحكم.(الجاحظ، الحيوان، 1969: 209/1، 2010)وهذا دليل صريح على أن الجاحظ يميز جيّدا بين مستوى الكلام ووجوه استعماله من خلال السياق الذي جاء فيه، تمييزا منه بين الاستعمال الحقيقي والاستعمال المجازي، والحقيقة أن العرب لم يفتهم إدراك الفرق بين المجاز سابقا وإن كانوا طبعا يقصدون معناه الواسع والحقيقة. وقد وردت الكثير من الأخبار تعكس هذه المقولة، فقد التبس الأمر على عديّ بن حاتم في قوله تعالى:

ڃ ڃ ڃ ڃ ڃ ڃ ڃ ڃ ڃ ڃ ڇ ڇ [البقرة: 187.حتّى قال: عمدت إلى عقالين أبيض وأسود، فجعلتهما تحت وسادتي، فكنت أقوم من الّليل فأنظر إليهما، فلم يتبيّن الأبيض من الأسود؟ فلّما أصبحت غدوت على رسول الله ﷺ فأخبرته فضحك، وقال:إن كان وسادك لعريضا، إنّما ذاك بياض النّهار وسواد اللّيل (الزمخشري، 2010). وقد وقف الجاحظ عند الآية الكريمة ڳ ڳ ڳ ڳ ڱ ڱ ڱ ڱ ں ڻ ڻ ڻ [الصافات: 64-65].وليس أن النّاس رأوا شيطانا قط على صورة، ولكن لما كان الله تعالى قد جعل في طباع جميع الأمم استقباح جميع صور الشّياطين، واستماجته وكراهته وأجرى على ألسنة جميعهم ضرب المثل في ذلك-رجع بالايحاش والتّنفير، وبالإخافة والتقريع.(الجاحظ، الحيوان، 1969:

39/4، 211/6). وهي الآية التي جعلت أبا عبيدة يؤلف كتابه « مجاز القرآن » وإن كان تركيزه على تفسير غريبه وإعرابه وشرح أوجه تعبيره على الأساليب العربية المعروفة. ولهذا استحضر بيتا لامرئ القيس الذي يقول فيه(الطويل):

أَيْقَتُلُنِي وَالْمَشْرَفِيُّ مَضَاجِعِي وَمَسْنُونَةٌ زُرْقٌ كَأَنْيَابِ أَغْوَالِ

وهم لم يروا الغول قطّ، ولكنّهم لّما كان أمر الغول يهولهم أوعدوا به. (الحموي، 1993) وهذا قريب جدّا ممّا قاله الجاحظ بعده، فالقرآن الكريم خاطب الناس بلسانهم، وعلى مجاري كلامهم المعروفة.

وقد عالج الجاحظ من خلال هذه الآية الكريمة قضايا عدة ، فهو من جهة بيّن وشرح قضيّة تتعلق بصورة بيانيّة (التّشبيه) والمسألة المثارة في هذا المجال هي: كيف نشبه شيئا معروفا بآخر مجهول وهذا المجهول نعني به المشبّه به غير معروف؟فهو شبّه طلعها برؤوس الشّياطين وهم لم يروها أبدا؟ فأجاب الجاحظ وبشيء من التفصيل، أن في إجماع المسلمين والعرب وكل ما لقيناه على ضرب المثل بقبح الشّيطان، دليلا على أنه في الحقيقة أقبح من كل قبيح.(الجاحظ، الحيوان، 1969: 213/6). ومن جهة أخرى ردّ على أهل الطعن والخلاف، ثم عالج القضيّة من ناحية ثالثة وهي وجوه استعمال كلمة شيطان، فالعرب تستعمله على وجه التطيّر: وهي أن يسّمى الجميل شيطانا، كما تسّمى الفرس الكريمة شوهاء، والمرأة الجميلة صّلماء، وقرناء، وخنساء وجرباء وأشباه ذلك.(الجاحظ، الحيوان، 1969: 213/6، 300/1).

لم يكن الجاحظ من المتعصبين لمذهبه، وإنّما يتبع الحق إذا بدا له وبان، فقد أعجبه تفسير عبد الرّحمان بن مهدي وهو من رجال الحديث، حين تعّرضوا للحديث النبويّ:«لا تسبّوا الدّهر فإنّ الدّهر هو الله». يقول الجاحظ: ما أحسن ما فّسر ذلك عبد الرّحمان بن مهدي قال: وجه هذا عندنا، أن القوم قالوا: ﭽ ﭾ ﭿ ﮀ ﮁ ﮂ [الجاثية: 24]،فلما قال القوم ذلك، قال النّبيﷺ: « ذلك الله». يعني أن الذي أهلك القرون هو الله عز وجل، فتوّهم منه المتوهّم أنّه إنّما أوقع الكلام على الدّهر.(الجاحظ، الحيوان، 1969: 340/1). وتعّرض لصنف من المفّسرين الذين يرميهم بالجهل والمعاندة، يجمعون العاّمة من الناس ويفسرون كلام الله على حسب هواهم، ويجيبون في كلّ مسألة تطرح عليهم، ويفتقرون إلى أي سند علميّ يعتمدونه في ذلك، غايتهم القصوى هي إرضاء هذه الفئة التي استهواها الغريب، وقد حذّر من هذه الفئة أبو إسحاق إبراهيم النظّام ويظهر أنّ الجاحظ يشاركه في ذلك : لا تسترسلوا إلى كثير من المفّسرين، وإن نصبوا أنفسهم للعاّمة وأجابوا في كلّ مسألة، فإنّ كثيرا منهم يقول بغير رواية على غير أساس وكلّما كان المفّسر أغرب عندهم كان أحبّ الناس إليهم.(الجاحظ، الحيوان، 1969: 342/1). حين فّسروا قول الله تعالى: ﮋ ﮌ ﮍ ﮎ ﮏ ﮐ ﮑ ﮒ ﮓ ﮔ ﮕ [المعارج: 24-25]. إنّ المحروم هو الكلب.(الجاحظ، الحيوان، 1969: 193/1). وهذا كما نرى تعّسف شديد في التأويل، أو من زعم تفسير ﮖ ﮗ ﮘ

[التين: 1].فزعم زيد بن أسلم أن التّين دمشق والزّيتون فلسطين.(الجاحظ، الحيوان، 1969: 208/1). الحقيقة التي نريد أن نشير إليها من خلال هذا العرض وإن كان موجزا نوعا ما إلاّ أنّنا نستطيع أن نقف على قضايا في غاية الأهميّة، أولها أنّ الجاحظ كان مخلصا لمذهبه الاعتزالّي، فكثيرا ما يقول: والمتكلمون لا يعرفون هذا التفسير.(الجاحظ، الحيوان، 1969: 211/6). وتحدّث الجاحظ عن إيجاز القرآن الكريم ومشيرا إلى كتابه المفقود « آي القرآن » الذي تحدّث فيه عن هذه القضية التي يمس علم المعاني وقد وضع الجاحظ تعريفا له اعتمده من جاء بعده ومتّخذا شواهد من القرآن الكريم يقول أبو عثمان في هذا الصدد: وقد ذكرنا أبياتا تضاف إلى الإيجاز وقلّة الفضول، ولي كتاب جمعت فيه آيا من القرآن، لتعرف بها فصل ما بين الإيجاز والحذف، وبين الزّوائد والفضول والاستعارات، فإذا قرأتها رأيت فضلها في الإيجاز والجمع للمعاني الكثيرة بالألفاظ القليلة، فمنها قوله حين وصف خمر أهل الجنّة: ﭐ ﭑ ﭒ ﭓ ﭔ ﭕ ﭖ [الواقعة: 19]. وهاتان الكلمتان قد جمعتا جميع عيوب خمر أهل الدنيا. وقوله عزّ وجلّ حين ذكر فاكهة أهل الجنّة فقال: ﮋ ﮌ ﮍ ﮎ ﮏ ﮐ [الواقعة: 33]. جمع بهاتين الكلمتين جميع تلك المعاني.(الجاحظ، الحيوان، 1969: 86/3). كما أنّ المعتزلة تعاطوا مع القرآن، ووقفوا على أساليبه البديعة، ولهذا كان للمعتزلة دور كبير في التّأسيس للبلاغة العربية، لأنهم عالجوا الكثير من القضايا التي تمسّ البلاغة، ويكفينا دليلا وبرهانا مؤلفات الجاحظ وإن كانت آراؤه مبثوثة فيها وقد ضاع البعض منها، وتفسير الكشّاف للزّمخشري وهو من المعتزلة، الذي يعد رائدا عند المفسرين جميعا، لأنه فسّر القرآن تفسيرا بيانيّا لقي القبول والحظوة عند أغلب العلماء والمفسرين إضافة إلى فخر الدين الرّازي وغيرهما. والجاحظ كان واحدا من الذين أسهموا في التّفسير والتأويل معتمدا على البيان العربّي وعلى المنطق في تلّفسير وفي الرّد على الطّاعنين انتصارا لبلاغة القرآن الكريم وفي الرّد على بعض المفسرين الذين تقيّدوا بظاهر النّص، أو اتّخذوا مناهج بعيدة عن العقل والمنطق السليم، وما أضافوه من خرافات وأباطيل ما أنزل بها الله من سلطان، وانتصارا كذلك لبلاغة اللّغة العربيّة التي نزل بها.

قائمة المصادر والمراجع:

أولا – المصادر:

الآيات القرآنية:

[يوسف: 2].

[الشعراء: 195]

[الأعراف: 175-176].

[النحل: 68-69].

[المائدة: 111].

[المائدة: 42].

[لقمان: 27].

[البقرة: 187.

[الصافات: 64-65].

[الجاثية: 24].

[المعارج: 24-25].

[التين: 1].

[الواقعة: 19].

[الواقعة: 33].

ثانيا –المراجع:

- الجاحظ. (1969). *رسائل الجاحظ. ت: عبد السلام هارون*، ط1،القاهرة: مكتبة الخانجي.

- الجاحظ. (1969). *الحيوان*. ت: عبد السلام هارون، ط3، لبنان: دار الكتاب العربي.

- أحمد أحمد فشل.(1979). *آراء الجاحظ البلاغية وتأثيرها في البلاغيين العرب*. مصر: الهيئة المصرية للكتاب.

- الجاحظ .(د.ت) .*البيان والتبيين*: عبد السلام هارون، ط7، مصر :مكتبة الخانجي.

- الجاحظ. (1991). *العثمانية. ط1*، لبنان: دار الجيل.

- الحموي .(1993)معجم *الأدباء*. ت: إحسان عباس، ط1، لبنان :دار الغرب الإسلامي.

- لزمخشري .(2010) .*الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل* . ط1، مصر :مكتبة مصر.

- الفراء. (1983). *معاني القرآن*. لبنان: عالم الكتب.

- لنديم .(1971) .,*الفهرست* .طهران.

-سلام.(د.ت) .*أثر القرآن في تطور النقد الأدبي إلى آخر القرن الرابع. ط1*، مصر :مطبعة الشباب.

- غرة .(2009) *البلاغة عند المعتزلة. ط1*، أبو ظبي :المجمع الثقافي، هيئة أبو ظبي للثقافة والتراث.

- ابن منظور .(1999) .*لسان العرب*. ت: أمين محمد عبد الوهاب وغيره، ط3، لبنان :داراحياء التراث العربي.